الديستوبيا في الرواية العربية المعاصرة؛ قراءة في رواية يوتوبيا لأحمد خالد توفيق

أ. هومن ناظميان

الملخص

الديستوبيا أوالمدينة الرائلة من الظواهر الأدبية التي ظهرت على مسرح الرواية العالمية في القرن العشرين خاصة بعد ويلات الحروب العالمية والباردة إثر الشعور بالخيبة لتحقيق المدينة الفاضلة التي طالما حلم بها الفلاسفة والمفكرون والأدباء طوال التاريخ.

نهدف في هذا البحث إلى قراءة رواية "يوتوبيا" للكاتب المصري أحمد خالد توفيق من المنظور الإجتماعي وفق البنيوية التكوينية عند لوسيان غولدمان. تطرق الكاتب في هذه الرواية إلى تصوير مدينتين متباينتين خياليتين في مصر: المدينة الأولى التي تسمى يوتوبيا تسكنها أقلية من الأثرياء وأصحاب السلطة الذين يتمتعون بكافة أشكال الرفاهية ورغد العيش ومحاطة بجدران غير قابلة للنفوذ. وراء هذه الجدران مدينة أخرى تسودها أشكال مختلفة من الفقر والجوع والحرمان وهي في الحقيقة ديستوبيا. يصور الكاتب هذين العالمين المتباينين ليصور جوانب من الواقع الإجتماعي في مصر ولينتقد بعض العادات والتقاليد الإجتماعية السائدة بين الأثرياء والفقراء. من جهة أخرى يصور الكاتب ثنائية الأنا والآخر المتمثلة في الأنا الغني والآخر المسكين التي تبين البون الشاسع بين حياة الأثرياء والفقراء في مجتمعه.

المقدمة

الديستوبيا أوالمدينة الرائلة أوالفاسدة من الظواهر الأدبية التي ظهرت في القرن العشرين على مسرح الرواية العالمية وهي على نقيض المدينة الفاضلة التي طالما حلم به الفلاسفة والمفكرون والأدباء طوال التاريخ منذ أقدم عصور الحضارة. الأدب الديستوبي يصور عالما حالكا مليئا بالبؤس واليأس وأشد أنواع الحرمان والموت.

شاعت الرواية الديستوبية في الأدب العربي بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ في مصر السنة التي عبر عنها الفيلسوف "سلافوي جيجيك" بأنها سنة الأحلام الخطيرة (١) عندما قال في مقدمة كتابه «في سنة ٢٠١١ شهدنا سلسلة من الأحداث الصاخبة؛ من الربيع العربي إلى حركة احتلوا وول ستريت ...لقد كانت سنة الأحلام الخطيرة في اتجاهين: أحلام متحركة تحرك المتظاهرين في نيويورك وميدان التحرير في لندن وأثينا وأحلام هدامة غامضة تدفع الشعبويين العنصريين تجاه أوروبا من هولندا وحتى المجر. المهمة الأولية للأيديولوجيا المهيمنة كانت تحييد البعد الحقيقي لهذه الأحداث. الإعلام قتل التحرر الجذري الكامن في الأحداث أوشتّت تهديدها نحوالديموقراطية، ثم نمى الزهر حول الجثة المدفونة» (٢)

نحاول في هذا البحث قراءة رواية مصرية معاصرة في ضوء العناصر الديستوبية من المنظور الإجتماعي.

الأسئلة التي يجيب عنها البحث:

١. ما هي معالم الديستوبيا في الأدب العربي المعاصر؟

٢. ما هي الدوافع التي ساقت بعض الكتاب إلى تصوير الديستوبيا في كتاباتهم؟

خلفية البحث

بما أن الأدب الديستوبي ظاهرة جديدة بالنسبة للأدب العربي، الدراسات النقدية للروايات الديستوبية ليست كثيرة . بإمكاننا أن نشير إلى هذه النماذج:

١. مقالة "الديستوبيا فى الرواية العربيه المعاصره، قراءة فى رواية اورويل فى الضاحيه الجنوبيه لفوزى ذبيان" كتبها فاطمة برجكاني لدراسة راوية لكاتب لبناني نشرت في مجلة اضاءات نقدية، السنه الثامنه، العدد التاسع والعشرون، آذار٢٠١٨، صص ١٤٩-١٣١

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

٢. ومقالة أخرى، "ثنائية اليوتوبيا-الديستوبيا في الرواية العراقية؛ دراسة سيميائية". أحمد عبدالرزاق ناصر الحسني نشر في مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد، سنة ٢٠١٥ ، العدد ١١٢، صص ٢١٠-١٩١.

كاتب الرواية

أحمد خالد توفيق فراج (١٠ يونيو١٩٦٢م / ٢ أبريل ٢٠١٨م) ، مؤلف وروائي وطبيب مصري يعد أول كاتب عربي في مجال أدب الرعب والأشهر في مجال أدب الشباب والفانتازيا والخيال العلمي ولقب بالعراب.

بدأت رحلته الأدبية مع كتابة سلسلة ما وراء الطبيعة، ورغم أن أدب الرعب لم يكن سائداً في ذلك الوقت إلا أن السلسلة حققت نجاحاً كبيراً واستقبالاً جيداً من الجمهور ما شجعه على إستكمال السلسلة، وأصدر بعدها سلسلة فانتازيا عام ١٩٩٥ وسلسلة سفاري عام ١٩٩٦. في عام ٢٠٠٦ أصدر السلسلة.

قام أحمد توفيق بتأليف روايات حققت نجاحاً جماهيرياً واسعاً، وأشهرها رواية يوتوبيا) عام٢٠٠٨ والتي ترجمت إلى عدة لغات وأعيد نشرها في أعوام لاحقة) وكذلك رواية السنجة) التي صدرت عام ٢٠١٢، و(رواية مثل إيكاروس) عام ٢٠١٥ ثم رواية في ممر الفئران التي صدرت عام ٢٠١٦ بالإضافة إلى مؤلفات أخرى مثل: "قصاصات قابلة للحرق" و"عقل بلا جسد" و"الآن نفتح الصندوق" والتي صدرت على ثلاث أجزاء.

اشتهر أيضاً بالكتابات الصحفية، فقد انضم عام ٢٠٠٤ إلى مجلة الشباب التي تصدر عن مؤسسة الأهرام، وكذلك كانت له منشورات عبر جريدة التحرير والعديد من المجلات الأخرى(كان له نشاط أيضاً في الترجمة، حيث قام بنشر سلسلة رجفة الخوف وهي روايات رعب مترجمة، وكذلك قام بترجمة (رواية نادي القتال) الشهيرة من تأليف تشاك بولانيك، وكذلك ترجمة رواية "ديرمافوريا" عام ٢٠١٠ وترجمة رواية "عداء الطائرة الورقية" عام ٢٠١٢). استمر نشاطه الأدبي مع مزاولته مهنة الطب، فقد كان عضوهيئة التدريس واستشاري قسم أمراض الباطنة المتوطنة بكلية الطب جامعة طنطا. توفي في ٢ أبريل عام ٢٠١٨ عن عمر يناهز ٥٥ عام إثر أزمة قلبية مفاجئة . خلف للمكتبة العربية العديد من الروايات والكتابات النقدية الهامة، وكان أحد أبرز كتّاب قصص التشويق والشباب في الوطن العربي التي تتميز بأسلوبه الممتع والمشوق مما أكسبه قاعدة كبيرة من الجمهور والقراء. (٣)

علم اجتماع الرواية

علم إجتماع الرواية حقل من حقول الدراسات الأدبية طوره لوسيان غولدمان؛ المفكر الفرنسي الروماني الأصل لشرح الفجوة الروائية بين الذات والموضوع بين الوعي النفسية والعالم في سياق إجتماعي (مادي-جدلي) ويسعى غولدمان انطلاقا من نقد الإقتصاد السياسي لماركس بأن مجتمع الرأسمالي تحكمه قيمة التبادل إلى إثبات أن الصفة الإشكالية للبطل الروائي يمكن شرحها في ضوء واقع ثقافي فاسد في ضوء تدهور جميع القيم (المادية والأخلاقية والجمالية والمعرفية) بفعل قوانين السوق. يعتقد غولدمان إن القيم الثقافية الأصيلة ليس لها وجود في الواقع الإجتماعي المتدهور إلا أنها تظل منبعثة في نفس الفرد ولاتفلت بالرغم من ذلك من التوسط الإنحطاطي الذي له تأثير عام في مجموع البنية الإجتماعية » (٤)

البنيوية التكوينية (التوليدية)

البنيوية التكوينية أوالتوليدية منهج جدلي يهتم بدراسة الظواهر الثقافية يرجع إلى لوسيان غولدمان الذي يرى أن أي تأمل في العلوم الإنسانية لابد أن ينطلق من داخل المجتمع لا من خارجه وأن الظوار الثقافية أبنية تتولد عن أبنية أوسع ترجع إلى العلاقات الإجتماعية نفسها (٥)

البنيوية التوليدية هي بمثابة الطاقة الفكرية والفنية التي جعلت غولدمان ينطلق بعلم الإجتماع البنيوي التوليدي من خمس فرضيات جمعت بين البنيوية والسوسيولوجية في منظومة نقدية تحلل المضمون الإجتماعي في ضوء الشكل الفني الذي تتبلور بنيته من خلال التحليل الذي يساعد المتلقي على تكوين رؤية خاصة به للعالم والمجتمع والحياة. الفرضية الأولى تؤكد أن العلاقة بين حياة المجتمع والخلق الأدبي لاتتصل بمضمون هذين القطاعين من الواقع الإنساني وإنما تتصل بالأبنية العقلية أساسا وتتبلور من خلالها وهوما يسميه غولدمان بالمقولات أوالمفاهيم التي تشكل الوعي الحياتي لمجموعة إجتماعية بعينها وبالعالم التخيلي الذي يخلقه الأديب. والفرضية الثانية أن هذه البنية العقلية هي أساس الحياة الإنسانية والإجتماعية بكل تجلياتها المادية والفكرية والإبداعية وهذه الأبنية العقلية هي بدورها

أبنية المقولات الدالة ليست ظواهر فردية وإنما هي ظواهر إجتماعية.

الفرضية الثالثة ترتبط بالعلاقة بين بنية وعي المجموعة الإجتماعية وعالم العمل الأدبي . فينفي غولدمان أي تعارض في وجود علاقة محكمة بين الخلق الأدبي والواقع الإجتماعي التاريخي من ناحية وقوة الخلق التخيلي من ناحية أخرى ولايمكن إدراك المعنى الحقيقي والشامل والدال سواء للخلق الأدبي أوالواقع الإجتماعي التاريخي أوالأثر الفعال الملموس للخلق التخيلي خارج إطار هذه العلاقة المحكمة.

وفقا للفرضية الرابعة الأعمال الأدبية ليست أعمالا نمطية أومألوفة أومتوقعة أومصطنعة بل هي قمم أوطفرات أوقوى دفع جديدة تنتقل بالوعي الإنساني في رؤيته للعالم إلى آفاق أبعد ومستويات أعلى. ويرفض غولدمان في فرضيته الخامسة المنظور السيكولوجي الذي يحصر أبنية المقولات في التصنيفات المجردة للوعي أواللاوعي بالمفهوم الفرويدي لهذه الفرضية. (٦)

البنيوية التكوينية تعتقد تماثلا بين مضمون الأدب والمجتمع بل بين الأشكال الأدبية وتطور المجتمع بطريقة غير آلية ويتم هذا الترابط بواسطة التناظر أوالتماثل بين البنى الجمالية أوالفنية والبنى الإجتماعية . أنها تسمح بنوع من العلاقة بين البنية الفوقية (الثقافة والأدب وافنون) والبنية التحتية (الإقتصاد والمجتمع) (٧)

رؤية للعالم

أصبحت دراسة الواقع هي التي تمكن الباحث من اكتشاف طموحات الإنسان وأفكاره ومشاعره في علاقته بذاته ومجتمعه أولا وفي مواجهته للجماعات الأخرى ثانيا وهذا ما يسميه غولدمان برؤية للعالم. هذه الرؤية بحسب العديد من الدارسين هي التي أصحبت الدعامة الأساسية للمنهج الإجتماعي في النص الأدبي. (٨)

يهتم غولدمان بدراسة بنية العمل الأدبي دراسة تكشف عن الدرجة التي يجسد بنية الفكر عند طبقة أومجموعة إجتماعية ينتمي إليها مبدع العمل من خلال التركيز على بنية فكرية تتمثل في رؤية للعالم تتوسط ما بين الأساس الإجتماعي الطبقي الذي تصدر عنه والأنساق الأدبية والفنية والفكرية التي تحكمها هذه الرؤية وهويعتبر هذه البنية المتوسطة كلية متجانسة تكمن وراء الخلق الثقافي وتحكمه (٩)

فرؤية للعالم عند غولدمان مفهوم جذري باعتبارها أساسا ابستمولوجيا لفهم العلاقة بين الأجزاء والكل داخل كل بنية من منجزات الخلق الثقافي ومنها الأدب من ناحية وفهم العلاقة بين بعض هذه الأبنية ببعض من ناحية أخرى (١٠)

ينطلق غولدمان في منهجه من المادية التاريخية فيجعل للوضع الإقتصادي أهمية كبيرة في الحياة الإجتماعية ويرى أن هذا الوضع وما يرتبط به هوالذي يكون الطبقات ويحدد العلاقات بعضها بالبعض الآخر بحيث تكون هذه العلاقات ما يسميه الواقع الإجتماعي. فإن هذين البعدين يتجاوبان ليصنعا الوعي الجماعي للطبقة فهوبنية فكرية خاصة بالطبقة ولايمثل كيانا أنطولوجيا منعزلا بل يمثل كيانا قارا في الوعي الفردي لكل أفراد الطبقة. (١١)

ينقسم هذا الوعي إلى نوعين: الوعي الفعلي يرتبط بالمشكلات التي تعانيها الطبقة أوالمجموعة الإجتماعية من حيث علاقاتها المتعارضة ببقية الطبقات والنوع الثاني هوالوعي الممكن يرتبط بالحلول الجذرية التي تطرحها الطبقة لتنفي مشكلاتها وتصل إلى درجة من التوازن في العلاقات مع غيرها من الطبقات أوالمجموعات وعندما يصل الوعي الممكن إلى درجة من التلاحم الداخلي تصنع كلية متجانسة من التصورات عن المشكلات التي تواجهها الطبقة وكيفية حلها يتحول إلى رؤية للعالم فأهم شرط من شروط هذه الرؤية أنها رؤية جماعية بالضرورة. (١٢)

ينظر غولدمان إلى رؤية للعالم باعتبارها متولدة عن مشكلات تتطلب حلا وباعتبارها نسقا متلاحما يضع المشكلات في مقابل حلولها فتصبح رؤية للعالم بنية شاملة فهي خط متلاحمن من المشاكل والإجابات فهي ليست من صنع الفرد المتوحد بل من صنع المجموعة. (١٣)

يوتوبيا

هذه الرواية تحمل عنوان يوتوبيا لكنها ترسم مدينتين في آن واحد؛ المدينة الأولى إسمها يوتوبيا هي عالم الأثرياء؛ مدينة خيالية شمالي مصر بنيت على شاطئ البحر محاطة بجدران غير قابلة للنفوذ وسكانها يتمتعون بجميع أشكال الرفاهة ويمتلكون كل شئ يشتهون. فهم أصحاب السلطة والمال وشبابهم غارقون في أنواع الملذات، لكنهم يعانون من الملل وأزمة الهوية لكثرة أسباب الرفاهة

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

ويلجأون بممارسة الجنس وتعاطي المخدرات للترفيه عن النفس... إنها مدينة فاضلة ثراءً، الجوع والفقر والحرمان من القضايا التي لاتخطر ببال أحد من سكانها ولكنها منهارة أخلاقيا. فهي من الناحية الأخلاقية في الواقع نوع من المدينة الراذلة أوالديستوبيا.

بإمكاننا أن نقسم الرواية إلى شطرين حسب عدد الرواة وهما إثنان. الراوي الأول هوالبطل الرئيسي للقصة وهوشاب في السادسة عشرة من عمره من سكان يوتوبيا والراوي الثاني اسمه جابر من الفقراء المساكين يعيش مع أخته صفية في البؤس والحرمان. فتنقسم الرواية إلى قسمين؛ قسم يرويه ممثل الأغنياء من وجهة نظره وقسم آخر يرويه ممثل الفقراء من وجهة نظره.

يصف البطل مدينته هكذا: «يوتوبيا، المستعمرة المنعزلة التي كونها الأثرياء على الساحل الشمالي ليحموا أنفسهم من بحر الفقر الغاضب بالخارج ... يمكنك أن ترى معي معالمها، البوابات العملاقة ، السلك المكهرب ، دوريات الحراسة التي تقوم بها شركة (سيفكو) التي يتكون أكثر العاملين فيها من (مارينز) متقاعدين ، أحيانا يحاول أحد الفقراء التسلل من داخل من دون تصرح فتلاحقه طائرة هليكوبتر وتقتله...» (١٤)

الإنهيار الأخلاقي في يوتوبيا

أول ميزة ليوتوبيا يواجهها القارئ هي الإنحطاط الأخلاقي تتبلور في المظهر والملبس والسلوك العائلي والإجتماعي لسكانها يصفها بطل القصة في قسم يوتوبيا وهوشاب في السادسة عشرة من عمره لكن القارئ لايجد معلومات في الرواية عن اسمه. ربما هذا الأمر يدل على أزمة الهوية التي يعانيها الشاب في حياته اللاهية. البطل راوالقصة في الوقت ذاته. نراه يصف مظهره في بداية الرواية هكذا:

«أتأكد من أن شعري حليق بطريقة هنود الموهيكان الشهيرة .. أصلع على جانبي الرأس والخصلة البنفسجية العالية في المنتصف مثل ديك برئ ثائر .. الصدر عار إلا من عدة قلائد عملاقة .. هناك جماجم وأيقونات من سحر الفودوو.. لست عابد الشيطان.. في الواقع أنا لا أصدق وجود أي شئ على الإطلاق، لكن هذه الأشياء تبدومثيرة على صدرى» (١٥)

تنحصر حياته في تعاطي المخدرات وممارسة الجنس : «عاشرت كل فتاة راقت لي وجربت كل أنواع المخدرات حتى (الفلوجستين) الجديد الوارد من الدانمرك.. يقولون إنه باهض الثمن لكن ما معنى باهظ الثمن؟ .. هذه الكلمة نلوكها بفمنا دون أن نعرف معناها..» (١٦)

بطل يوتوبيا ككثير من أصدقائه يتعاطي المخدرات للهروب من الملل «جربت عقاقير كثيرة جدا .. نتباعها من الحراس الأمريكيين ولكن مشكلة المخدرات هي أنها تفقد إثارتها مادامت متاحة .. ثم جزء مهم من اللعبة هوالتحريم والندرة .. أن تتعاطاها خائفا .. عندما تتاح المخدرات في كل وقت تفقد أية لذة لها ... تصير مملة سوقية (١٧)

ممارسة الجنس والحمل والإجهاض صار مألوفا عند المراهقين حيث يصف البطل حياته الجنسية هكذا: «ألمس الفتاة فتأتيني بعد شهر لتقول أن الأعراض زارتها .. ما من فتاة فوق الثانية عشرة هنا لم تجرب هذه الأعراض وتألفها .. والنتيجة واحدة على كل حال.. سوف أخذ من لارين شيكا وأعطيه للفتاة .. والفتاة سوف تقصد المركز الطبي لتتخلص من هذا الكابوس..» (١٨)

ذروة الإنحطاط الأخلاقي عند سكان يوتوبيا تتمثل في لعبة الصيد حيث يخطفون واحدا من الفقراء لممارسة اللعبة ثم يقتلونه ويقطعون يده للتذكار ثم يذهبون للعمرة يسألون الله أن يغفر لهم (١٩)

الدين في يوتوبيا

الدين أصبح موضة يمارسها بعض الإثريا تلبية لحاجة نفسية في أذهانهم خوفا من أن يفقدوا كل شئ وفي الوقت نفسه يعاقرون الخمور ويغتصبون نساء الأغيار. الشباب لايهتمون بالدين على أي حال. (٢٠)

في موضع آخر يتحدث بطل يوتوبيا حول التدين في مدينته ويعلل هذه الظاهرة: «بعض هولاء القوم متدين لأن الدين هوالأمل الوحيد لهم في حياة أفضل بعد الموت... عندنا في يوتوبيا متدينون كثيرون والطائرات الذاهبة للعمرة لاتتوقف لكن السبب –كما اعتقد– هوخوف سادة يوتوبيا من أن يفقدوا كل شئ في لحظة.» (٢١)

العلاقات العائلية

الأولاد في يوتوبيا لاينادون آبائهم وأمهاتهم باسم الأب أوالأم بل ينادونهم بأسمائهم، العلاقات الزوجية بين الآباء والأمهات هشة للغاية ... في موضع آخر عندما يتحدث عن أبويه تركواه وشأنه: لم

يتعد أبواي مراقبتي بهذا الصدد لا أحد يتدخل في حياتي على كل حال .. (٢٢)

صورة الفقراء عند سكان يوتوبيا

يصف بطل يوتوبيا الفقراء بالأغيار، هذه التسمية تدل على مدى الفارق بين طبقات المجتمع في يوتوبيا وغيرها ، فبطل يوتوبيا يسخر من الفقراء ويحقرهم أكثر من موضع. يصف أن هولاء الفقراء لايعيشون بل يتظاهرون بالحياة : «الخلاصة التي توصلت لها بعد دقيقة في هذا العالم هوأن هولاء القوم يتظاهرون بأنهم أحياء ... يتظاهرون بأنهم بشر..» (٢٣) في أكثر من موضع يعبر عن دهشته للبون الشاسع بين حياة سكان يوتوبيا وحياة الفقراء. «الآن فقط أفهم لماذا عزلنا أنفسهم في (يوتوبيا) .. لم يعد في هذا العالم إلا الفقر وإلا الوجوه الشاحبة التي تطل منها عيون جاحظة جوعى متوحشة.» (٢٤)

يصف البطل العمال فى يوتوبيا الذين يأتون صباحا ويعودون مساء للقيام بأعمال ليست في شأن سكان يوتوبيا «لايتكلمون ولايرفعون عيونهم لكنك تشم منهم خليطا مزعجا من المقت والخبث والتملق والغضب المكبوت والرائحة الكريهة .. سنوات من القهر جعلتهم أقرب إلى الوحوش ... يوما بيوم يفقدون جزءا من آدميتهم حتى صاروا كائنات مريعة بحق.» (٢٥)

في موقف آخر يندهش البطل من مدى الفقر والتعاسة والبؤس قائلا: «لاأبتلع فكرة وجود كل هذا الفقر.. الآن فقط أفهم هذه الأسوار العالية ورجال المارينز والمطار الداخلي .. لوتركنا كل هذا لسال هذا الطوفان ليغرقنا ويقتلنا.. » (٢٦)

الإنهيار الأخلاقي عند الفقراء

الأنهيار الأخلاقي لاينحصر بالأثرياء في يوتوبيا بل نواجه أشكالا من انحطاط أخلاقي عند الفقراء والمساكين . على سبيل المثال يصفهم البطل عندما حاولت جرمينال لتسرق جوالا لتتصل بها أمها في يوتوبيا لكنها فشلت وأمسكت بها رجال من الفقراء غاضبين يريدون معاقبتها «خرج الرجال من الزقاق وهم يمسكون بجرمينال .. وأقسم أحدهم أنها يجب أن تلقى عقابها هنا والآن وبطريقة الإيذاء المهينة التي يجيدها الرجال مع النساء .. لقد تحول هولاء القوم إلى أبعد ما تكون عن البشر .. فقط يتحركون للجنس أوالعنف.. الأغتصاب يمنح الشيئين معا.» (٢٧)

في موضع آخر جابر وصفية يساعدانهما للتنكر ويعلمانهما السلوك كالفقراء « العادات الحميدة تقتل هنا .. لابد من أن تبصق على الأرض من حين لآخر.. هي لابد أن تهرش صدرها ورأسها.. المفروض أن الأول يعج بالبراغيث والثاني بالقمل..» (٢٨)

البطالة بين الفقراء

البطالة من الظواهر المشتركة بين شبان يوتوبيا والفقراء لكن الأسباب تختلف اختلافا تاما. فشبان يوتوبيا لايزاولون المهن لأنهم لايحتاجون إلى العمل. فكل شئ في متناول أيديهم أي لحظة يشتهون. لكن الشبان في مدينة الفقراء عاطلون لأنهم لايجدون فرصة للعمل. تصف صفية أخت جابر أخيه وتبين أسباب بطالته «هومن طبقة التلامذة إنهم هولاء الذين دخلوا كليات أوجامعات منذ عشر سنوات ثم لم يجدوا عملا ولم يستطيعوا أن يصنعوا شيئا مما تعلموه.. لكن علاقتهم بالكتب لاتنتهى.. منذ عشرين سنة لم يعد لأحد فرصة على الإطلاق.. لولم يكن أبوك ضابط شرطة أورجل أعمال أوتاجرا يورثك تجارته فلافرصة لك على الإطلاق وسوف تنضم لهولاء الذين يشمون الكلة في الخرائب.» (٢٩)

المقارنة بين العالمين

يقوم الراويان في مواضع مختلفة بالمقارنة بين المجتمعين ويذكران وجوه الشبه أوالإختلاف بينهما. على سبيل المثال في الفترة التي تسلل بطل يوتوبيا إلى عالم الأغيار (الفقراء) يقارن دائما بين سكان يوتوبيا وغيرهم في كثير من نواحي الحياة والسلوك الإجتماعي والمعتقدات. مرة يصف التدين وأسبابها بين الأغنياء والفقراء «بعض هولاء القوم متدين لأن الدين هوالأمل الوحيد لهم في حياة أفضل بعد الموت... عندنا في يوتوبيا متدينون كثيرون والطائرات الذاهبة للعمرة لاتتوقف لكن السبب –كما اعتقد– هوخوف سادة يوتوبيا من أن يفقدوا كل شئ في لحظة.» (٣٠)

في موضع آخر يتحدث جابرعن البون الشاسع بين سكان يوتوبيا والأغيار: «كان آباؤكم من الطبقة استطاعت أن تستخدم نفوذها للإثراء .. حسابات مصرفية في الخارج..قروض من المصارف.. احتكار.. كل شئ في مصلحة آبائكم وضدنا على طول الخط .. هكذا استطاعات هذه الطبقة أن تتماسك وتزداد ثراء بينما

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

هوينا نحن إلى الحضيض.. لكن الحياة معنا صارت أمرا مستحيلا .. هكذا تكون مجتمعان أحدهما يملك كل شئ والآخر لايملك شيئا.» (٣١)

بعض الأحيان بطل يوتوبيا يتحدث عن وجوه الشبه بين هذين العالمين. «هناك أقبال عام على أفلام الجنس والعنف والجريمة .. من الغريب أن الأغيار يقبلون على ذات الأفلام في تلفزيوناتهم الرخيصة لكن لأسباب تختلف .. حب العنف هنا سببه الملل وحب العنف هناك سببه الفقر والغضب المكبوت .. لماذا كان أباطرة روما وعامة الشعب يحبون مشاهدة العبيد يمزقون بعضم ؟ لماذا لم يكسب الفقر الفقراء رحمة؟ ليت أحد علماء الإجتماع يفسر لي هذا..» (٣٢)

جابر أيضا يعتقد بأن هناك وجوه التشابه بين الفقراء وبين سكان يوتوبيا كثيرة جدا «كلانا هنا وهناك نعشق العنف، كلانا هنا وهناك نحب المخدرات، كلانا هنا وهناك نرى أفلام الإغتصاب بنهم، كلانا هنا وهناك نتكلم عن الدين طيلة الوقت.. لهذا لأريد دما.. لاأريد قتلى ...هناك يتعاطون المخدرات ليفروا من الملل.. هنا نتعاطى المخدرات لننسى عذاب لحظة.. هناك يحترفون الدين لأنهم يخشون أن يضيع هذا كله، نحن نحترف الدين لأننا لانطيق معاناتنا هباء بلاثمن.» (٣٣)

ثنائية الذات والآخر:

يعامل سكان يوتوبيا غيرهم كأنهم ينتمون إلى جنس آخر أوبلد آخر دونهم. يسخرون من الفقراء ويسخفونهم ويبررون ممارسة السلطة عليهم. نرى بطل يوتوبيا يسخرمن جابر وأخته وقومه قائلا: «.. أخته حيوان مصدور، طعامه فاسد، كتبه بالية، أحلامه موؤدة، أفكاره عتيقة، اسمه جابر، قومه رعاع، أصدقاؤه حثالة، برغم هذا كله يمشي كالبشر ويتكلم كالبشر... ما أحمق هولاء القوم وما أشد سذاجتهم.» (٣٤) من ناحية أخرى جابر يكره سكان يوتوبيا ولكن لايحب العنف والقتل والدم. (٣٥)

عندما أتيحت لجابر الفرصة لاغتصاب جرمينال حاول أن يفعلها كانتقام من يوتوبيا وسكانه لكنه لم قدر على ذلك. كان يفكر في نفسه: «قهر هذه الفتاة ليس قهر أنثى بل هوقهر طبقة بأكملها؛ قهر ظروف. » ولكنه لايستطيع أن تنتقم منها لأنه يرى كل فتاة هشة معدومة الحيلة كأنها أختها صفية. (٣٦)

ولكن الشاب اليوتوبي اغتصب صفية عندما كانت تساعدهما للإستعداد للهروب ويسخر منها ومن نساء الأغيار ورجالهم : «رجال الأغيار ليسوا رجالا حقا لقد قضى الجوع والطعام الفاسد والجوسيبول على رجولتهم ونحن نظفر بنسائهم بسهولة طيلة الوقت في يوتوبيا.» (٣٧)

قاومته صفية بعنف لكنه قيدها بشرائط مزقها من قميصه وكمم فمها وكان يفتخر بما يفعل بها ويحسبها نوعا من الرجولة والسلطة قائلا في نفسه «اغتصاب مريضة سل .. سوف تدخل هذه الواقعة في التاريخ ربما أحكيها مرارا للأصدقاء في جلسات الفلوجستين لوعدت سالما.» (٣٨)

وكان البطل يسخر من صفية ويضحك منها وطبقتها الإجتماعية ويحتقرها طوال الإغتصاب قائلا لها: «ليس فقركم ذنبنا.. هه هه.. ألا تفهمين بعد أنكم تدفعون ثمن حماقتكم وغبائكم وخنوعكم .. هه هه .. عندما كان آباؤنا يقتنصون الفرص كان آباؤكم يقفون أمام طوابير الرواتب في المصالح الحكومية.. هه هه .. أنتم لم تفهموا اللعبة مبكرا لهذا هويتم من أعلى إلى حيث لايوجد قاع، هه هه.. ما ذنبا نحن... عندما هب الجميع ثائرين في كل قطر في الأرض هززتم أنتم رؤسكم وتذرعتم بالإيمان والرضا بما قسم لكم.. هه هه تدينكم زائف تبررون به ضعفكم.. أنتم أقل منا في كل شئ.. هذه سنة الحياة.. يجب أن تقبلوها .. لم يعد أحد قادرا على تغيير أى شئ.» (٣٩)

الثورة والمقع

في نهاية الرواية بعدما ساعد جابر البطل وعشيقته للهروب نحويوتوبيا عبر نفق وفي لحظة الوداع ، قتله بطل يوتوبيا بضربات حجر وقطع ذراعه كتذكار. وبخته جرمينال على جريمته لكنه أجاب قائلا: «وانتهى دوره عند هذا الحد .. إنه أحمق وعليه أن يدفع الثمن .. أنا لن أقوم بكل هذه المغامرة وأعود من دون تذكار.» (٤٠)

تنتهي الرواية بمشهد ثورة الفقراء وزحف جمع غفير منهم في الصحراء نحويوتوبيا بينما رجال المارينز مستعدون لقمعهم وبطل القصة يبدأ بإطلاق النار عليهم وهويشتمهم ويسبهم. (٤١)

نتائج البحث:

صور الكاتب مجتمعا انقسم بين طبقتين: طبقة الأثرياء وطبقة المساكين لايوجد فيه الطبقة الوسطى. مجتمع الفقراء مملوء بالحقد والغضب المكبوت

ومستعد للثورة . فلهذه الأسباب بنى الأثرياء مدينة خاصة لهم تشبه حصنا منيعا يحفظه حراس فتاكون من رجال المارينز مستعدون لقمع أي محاولة للإحتجاج.

مع أن مدينة الأثرياء تسمى يوتوبيا والناس يعيشون فيها في سعة الرزق والنعيم لكنها من الناحية الروحية والأخلاقية نوع من الديستوبيا لأن الفضائل الأخلاقية والإنسانية معدومة فيها. من ناحية أخرى هناك عالم الفقراء ليس له اسم خاص في الرواية لكنها تصور نوعا من الديستوبيا: مدينة حافلة بالفقر والجوع والحرمان والبؤس.

يبدوأن ملامح الديستوبيا في الرواية العربية المعاصرة تشمل الجانب المادي والروحي معا. فيصور الكاتب أن الديستوبيا لاتنحصر في الفقر والحرمان والجوع، بل انعدام الفضائل الأخلاقية والإنغماس في الأنانية واكتناز الثروة بطرق غير شرعية وعدم الإكتراث بمصير الوطن والمواطنين يدفع الناس إلى مجتمع ديستوبي ظاهره مرموق وباطنه مبغوض.

بإمكاننا أن نلخص ميزات يوتوبيا كما وصفها كاتب الرواية فيما يلي:

- امتلاك جميع أشكال الثروة والسلطة والرفاهة
- الحياة اللاهية والغارقة في الملذات خاصة ممارسة الجنس، تعاطي المخدرات وحب العنف
- الإنهيار الأخلاقي وانعدام الفضائل الإنسانية
- العلاقات العائلية الهشة للغاية
- الخوف الدائم من ثورة الفقراء
- الانغلاق والانعزال وراء جدران عالية باستعانة حراس أمريكيين
- ازدراء الفقراء وعدم الإكتراث بمصيرهم ومشاكلهم
- اعتبار الفقراء أغيارا دون البشر كقطعان من الحيوانات

ونستطيع أن نلخص ميزات عالم الفقراء كما يلي:

- الجوع والبؤس والحرمان بجميع أشكاله وأنواعه
- تعاطي المخدرات، حب العنف والفحشاء
- الإنهيار الأخلاقي وانعدام الفضائل الإنسانية إلى حد كبير
- الحقد المتزايد ضد سكان يوتوبيا

الثنائية الموجودة بين الأقلية التي سيطرت على كل شئ وتمتلك كل شئ والأغلبية التي لاتمتلك شيئا غير البؤس والحرمان تتواجد طوال الرواية من بدايتها إلى نهايتها. حيث يروي القصة راويان اثنان. راويمثل طبقة الأثرياء وراويمثل طبقة الفقراء. تتبلور هذه الثنائية في رؤية العالم لكل راو، الرؤية الناشئة من وعه الطبقي. فالشاب اليوتوبي ينتمي إلى طبقة لاتهتم بمصير الوطن ومواطنيها ولاتفكر إلا في مصالحها الفردية. من جهة أخرى جابر ينتمي إلى طبقة لاتعرف سوى البؤس والحرمان والحقد ضد سكان يوتوبيا ويحلم بالثورة ضدها.

بالنسبة إلى الوعي الفعلي والوعي الممكن لكاتب الرواية الذي ينتمي إلى طبقة الأطباء والمثقفين بإمكاننا أن نقول إنه أدرك جيدا الجوانب السلبية للتفاوت الطبقي في مجتمعه ويدعوللبحث عن الحلول قبل فوات الأوان.

هوامش البحث

(١)فاطمة برجكاني، «الديستوبيا فى الرواية العربيه المعاصره، قراءة فى رواية اورويل فى الضاحيه الجنوبيه لفوزى ذبيان» اضاءات نقدية، السنه الثامنه، العدد التاسع والعشرون، آذار٢٠١٨، ص ١٣٣.

(٢)سلافوي جيجيك، سنة الأحلام الخطيرة، ترجمة أمير زكي، القاهرة، دارالتنوير، ٢٠١٢، ص ٣.

(٣)(ويكيبيديا والمصرى اليوم ٢-٤-٢٠١٨)

(٤)بير زيما، النقد الإجتماعي، ترجمة عايدة لطفي، دارالفكر، القاهرة، ١٩٩١، ص ١٤٦.

(٥)عبدالله حسيني، ثلاثية سهيل ادريس دراسة بنيوية تكوينية، العراق، دارنيبور، الطبعة الأولى، ٢٠١٥، ص ٢٦.

(٦)نبيل راغب، موسوعة النظريات الأدبية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠٠٣، صص ٣٣٤-٣٣٢.

(٧)عبدالله حسيني، ٢٧ و٢٨.

(٨)سامي شهاب أحمد الجبوري وسهى يونس سلمان الجبوري، في الأدب والنقد، عمّان، دار غيداء، الطبعة الأولى ٢٠١٨، ص ٤١٨.

(٩)جابر عصفور، قراءة في لوسيان غولدمان عن البنيوية التوليدية ، فصول، المجلد الأول، يناير ١٩٨١، العدد ٢، ص ٨٤)

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

(١٠)المصدر نفسه، ص ٨٥.

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) المصدر نفسه.

(١٣) المصدر نفسه، صص ٨٥ و٨٦.

(١٤) احمد خالد توفيق، يوتوبيا، القاهرة، دار ميريت، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، ص ٢٠.

(١٥) المصدر نفسه، ص ١٣.

(١٦) المصدر نفسه، صص ١٦ و١٧.

(١٧) المصدر نفسه.

(١٨) المصدر نفسه، ص ١٨.

(١٩) المصدر نفسه، ص ١٢٣.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٢١.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٢٢) المصدر نفسه، صص ٢٩-١٧

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٥٠ و٥١

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٥١

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ١١٩.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ١٢٢ و١٢٣.

(٢٨) . المصدر نفسه، ص ١١٦.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ١١١.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٣١) المصدر نفسه، ص ١٠٧

(٣٢) المصدر نفس، صص ٣٩ و٤٠.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ١٣٢.

(٣٤) المصدر نفسه، ص ١٢٥.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ١٣١.

(٣٦) المصدر نفسه، صص ١٤٨-١٤٦.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ١٦٣.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ١٦٤.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ١٦٤ و١٦٥.

(٤٠) المصدر نفسه، صص ١٧٧ و١٧٨.

(٤١) المصدر نفسه، صص ١٩١ و١٩٢.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2